المحاضرة الثامنة عشرة

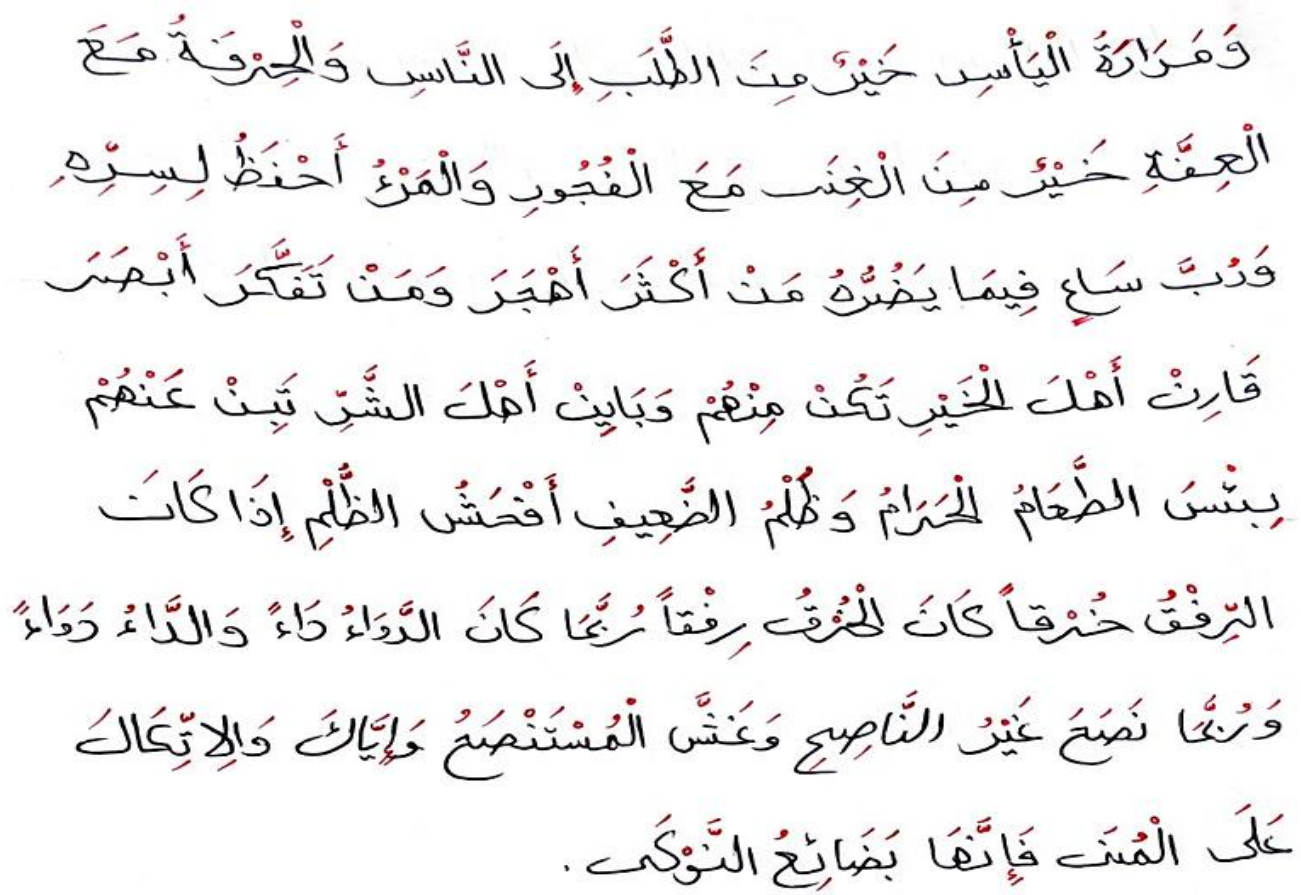

معاني المفردات:

١ـ المرارة: مرَّ مرارةً أي صار مرَّاً

٢ـ اليأس: اليأس واليئاسة، القنوط، نقيض الرجاء

٣ـ العفَّة: ترك الشهوات من كل شيء، وغلب في حفظ الفرج مما لا يحل

٤ـ الفجور: فجر فجوراً عن الحق، أي عدل عن الحق، كذب وأصله الميل عن الصدق والقصد، ركب المعاصي

٥ـ ساعٍ: الساعي الرسول الذي يُرسل من مكان إلى آخر في حاجة

٦ـ باين: بانَ انقطع وفارق، وباينه هاجره، باين أهل الشر انقطع عنهم وفارقهم واهجرهم

٧ـ أفحش: فعل الفحشاء، والفحش القبيح من القول أو الفعل

٨ـ الرفق: لين الجانب واللطف

٩ـ الداء: المرض والعلة

١٠ـ بضائع: هي من المال، ما أعد للتجارة

شرح النص

(وَمَرارَةُ اليَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إلى النَّاسِ) اليأس عما في أيدي الناس من المنجيات لئلا يذهب الإنسان في الطمع لأن الطمع يذله، وإنَّ اليأس يلزم أن ييأس الإنسان مما في أيدي الناس فمرارة هذا اليأس أفضل من أن يطلب الإنسان من غيره فلا يعطيه.
واليأس هو حالة قطع الأمل من الآخرين من موقع الاختيار بحيث أنَّ الإنسان يوصد على نفسه باب الطلب من الناس وهو أمر صعب لكنه يوجب للإنسان عزاً وكرامة.

آراء الشرّاح لنهج البلاغة:

الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره:
القناعة كنزٌ وغنى، واليأس مما في أيدي المخلوقين عزةٌ وكرامةٌ وجرأةٌ في قول الحق وإعلانه، ومن التجأ إلى الله يائساً ممن سواه أكرمه وأعطاه، أقولها بجزمٍ ويقينٍ وعن تجربةٍ ووجدان.

الشيخ ابن ميثم البحراني قدس سره:
أطلق لفظ المرارة على الألم الذي تجده النفس بسبب اليأس من المطالب إطلاقاً ـ لاسم السبب على المسبب ـ والسبب: اليأس، والمسبب: السؤال أو الطلب، والمسبب هو الذي يسبب مرارة اليأس.

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حفظه الله:
يذكر قول الإمام الباقر ع: خَيرُ المَالِ الثِّقَةُ باللهِ واليَأسُ عَمَّا فِي أيدِي النَّاسِ.
وهذا ليس معناه أن يعرض الإنسان عن التكاتف والتعاون بين الناس لأن الحياة الاجتماعية لا تقوم إلا بهما، بل المراد أن لا ينظر الإنسان إلى أموال الناس بعين الطمع بل يسعى لكسب معاشه بنفسه.

السيد عباس الموسوي قدس سره:
وإنَّ هذا اليأس مهما كان مراً فهو كالشهد إلى الطلب من الناس ومد اليد إليهم والظهور أمامهم بمظهر الحاجة والمسكنة.

ورد في نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين ع قال: الْغِنَى الْأَكْبَرُ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

فَإِنْ كَانَ طَعْمُ اليَأْسِ مُرّاً فَإِنَّهُ ... أَلَذُّ وَأَحْلَى مِنْ سُؤَالِ الأَرَاذِلِ

(والحِرْفَةُ مَعَ العِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الغِنَى مَعَ الفُجُورِ) الحرفة بالكسر مثل الحرف بالضم، وهو نقصان الحظ وعدم المال، ومنه قوله (رجلُ محارَف) بفتح الراء، والعفة الامتناع عما لا يحل من المحرمات واللذات.
والمراد: أن ضيق الرزق مع أن يكون الإنسان عفيف الفرج واليد خير من أن يغنى عن طريق الكسب الحرام، وذلك لأن ألم الحرفة مع العفة ومشقتهما إنما هي أيام قليلة وهي أيام العمر، أما لذة الغنى إذا كان مع الفجور ففي مثل تلك الأيام يكون ولكن يستعقب عذاباً طويلاً، فالحال الأولى خير لا محالة، وأيضاً: ففي الدنيا خير أيضاً للذكر الجميل فيها والذكر القبيح في الثانية والمحافظة على المروءة في الأولى وسقوطها في الثانية.

قال الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره: العُسرُ معَ النَّزاهةِ والإباءِ خَيرٌ مَنَ اليُسرِ مَعَ الحَرَامِ والخَسَاسَةِ.

(والمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ) أي الأولى ألَّا تبوح بسرك إلى أحد فأنت أحفظ له من غيرك، فإن أذعته فانتشر فلا تلم إلا نفسك لأنك كنت عاجزاً عن حفظ سر نفسك فغيرك عن حفظ سرك وهو أجنبي أعجز. وقيل: كتمانُ الأسرارِ يدلُّ على جواهرِ الرجالِ كَمَا أنَّهُ لَا خيرَ في آنيةٍ لا تُمسِكُ ما فيها فَكَذلكَ لَا خيرَ في إنسَانٍ لا يُمسِكُ سِرَّهُ.

قال المهلّب: أدنى أخلاقُ الشريفِ كتمانُ السرّ وأعلى أخلاقهُ نسيانُ ما أُسِرَّ إليهِ.

وقيل: اثنان إذا تعدَّاهُمَا السِرُّ فَلَن يُحفظ وهُمَا الشَّفتَان.

وقال أحد الحكماء: قلوبُ الأحرارِ قبورُ الأسرارِ.

ورد في نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين ع قال: مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ بِيَدِهِ.

وَمَنْ ضَاقَ بِسِرُّهُ ذَرْعاً فَلَا ... يَلُومَنْ مَنْ أَطلَقَهُ وَأَفْشَاهُ

(وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ) فلابد للإنسان أن ينظر في عاقبة عمله هل تنفعه أم تضره، و(رُبَّ) هنا للتكثير لا للتقليل إذا أردنا بالضرر ما يشمل حساب الآخرة وعقابها، والمراد من أكثر بالكلام هذى وهذه دعوة إلى الصمت وقلة الكلام، وقال الحكماء: لا خيرَ في ظَفَرٍ يُصابُ بضرَرٍ، وقال عبد الحميد الكاتب في كتابه إلى أبي مسلم: لو أرادَ اللهُ بالنملةِ صلاحاً لَمَا أنبتَ لَها جناحاً.

(مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ) يقال: أهجر الرجل، إذ أفحش القول المنطق السوء والخنا، وقيل: من كَثُرَ كلامهُ كَثُرَ سقطه، وقالوا أيضاً: قلَّما سَلِمَ مِكثارٌ أو أمِنَ مِن عِثَار.

قال الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره: للقولِ ساعاتٌ ومقدارٌ معينٌ فمن تعداهُ وَقَعَ في اللَّغوِ والخَطَأ.

ورد في نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين ع قال: مَن كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ، وَمَن كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَياؤُهُ، وَمَن قَلَّ حَياؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَن قَلَّ وَرَعُهُ ماتَ قَلْبُهُ، وَمَن ماتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النّارَ.

يذكر **الشيخ التستري طيب الله ثراه** عندما يمر بشرح العبارة قول النبي ص: ألا أخبرُكُم بأبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم مِنّي مَجَالِسَ يومِ القيامَةِ: الثَّرثارُونَ المُتَفَيهقونَ، والمراد: الذين يكثرون الكلام ويتعمقون فيه طلباً للتكلم وخروجاً عن القصد، وأصل الثرثار مأخوذ من العين الثرثارة وهي الواسعة الأرجاء الغزيرة الماء، والمتفيهق: من قولهم فهق الغدير ويفهق إذا كثر ماؤه، ويأتي الإهجار أيضاً بمعنى: الهجاء والهذيان.

قال الشّمّاخ: كَمَاجِدَةِ الأَعْرَاقِ قَالَ ابْنُ ضَرَّةٍ ... عَلَيْهَا كَلاماً جَارَ فِيهِ وَأَهْجَرَا

مَا ذَلَّ ذُو صَمْتٍ وَمَا مِنْ مُكْثِرٍ ... إلاَّ يَزِلُّ وَمَا يُعَابُ صَمُوتُ

إنْ كَانَ مَنْطِقُ نَاطِقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... فَالصَّمْتُ دُرٌّ زَانَهُ يَاقُوتُ

(وَمَن تَفَكَّرَ أَبْصَرَ) من تفكر أدرك طريق الصواب فاللازم لمن يريد أمراً أن يكثر التفكر فيه، قال الحكماء: الفكر تحديق العقل نحو المعقول كما أن النظر البصري هو تحديق البصر نحو المحسوس، وكما أن من حدق نحو المبصر وحدقته صحيحة والموانع مرتفعة لا بد أن يبصره ، كذلك من نظر بعين عقله وأفكر فكراً صحيحاً لا بد أن يدرك الأمر الذي فكر فيه ويناله.
فمن تفكر أبصر وخرج من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة ومن عمل وأقدم بلا تفكير خبط في التيه .

السيد محمد تقي النقوي قدس سره أحد الشراح لنهج البلاغة: إنَّ التفكر بالأمور يوجب زيادة البصيرة، فمن المعلوم أن نتيجة التفكر هي البصيرة ـ فالتفكر من حيث هو لا مدح فيه دون البصيرة، سُئل عيسى ع من أفضل الناس؟ قال: من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة.
وقال الآخر: الفكرُ مرآةٌ تريكَ منها حسناتكَ وسيئاتك.

(قَارِنْ أَهْلَ الخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ) كن مع أهل الخير تكن منهم لأن أخلاقهم تسري إليك، وباين عن أهل الشر تكن خلافهم وتنقطع عنهم وتكون ضد صفتهم ولا تحسب عليهم.
والمقارنة الممازجة والمباينة المباعدة، قيل: صاحبك رقعة قميصك فانظر بما ترقعه.

آراء الشراح لنهج البلاغة:

الشارح المعتزلي: كان يقال: حاجبك وجهك وكاتبك لسانك وجليسك كلك.
قال النبي الأكرم ص: المَرءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ وَقَرِينِهِ.

السيد النقوي طيب الله ثراه: قارن أهل الخير بالمعاشرة والمجالسة والمؤانسة لتكون منهم فإنَّ من أحب شيئاً حشره الله معه، والمراد بأهل الخير من يفعل الخير ويقوله وأهل الشر من يفعل المعاصي ويقول بالباطل.

الشيخ التستري قدس سره: من وصايا لقمان الحكيم لابنه: يا بني كن عبداً للأخيار ولا تكن ولداً للأشرار.

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ مُقتَدِ

(بِئْسَ الطَّعَامُ الحَرَامُ) لأنه يوجب خزي الدنيا والآخرة.

(وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ) لأنه أوجب لكسر القلب.

(إِذا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الخُرْقُ رِفْقاً) الرفق: اللين، الخرق: الحماقة.

ويعني: التعامل مع الأحمق باللين خطأ مثل عقوبة المحسن وإكرام المسيء فاللازم على كل إنسان أن يراعي ما يفعل.

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

(رُبَّمَا كَانَ الدَّواءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَواءً) أحياناً يكون الدواء موجباً لازدياد الداء والداء يكون بنفسه دواء ليدفع مرضاً أشد كالرمد يدفع العمى والدمل يدفع الجذام والزكام يدفع الجنون، عندما كانت قريش تتهم النبي ص بالجنون كان يقول لهم ص: كيف تتهموني بالجنون وأنا أزكمكم، وهذا مثل قول أبي الطيب: وَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالعِلَلِ، قال الإمام علي ع في غير نهج البلاغة: رُبَّ دَوَاءٍ هَيَّجَ دَاءً.

(وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشَّ المُسْتَنْصَحُ)غير الناصح أي الذي ليس من شأنه النصح أو قليل النصح فاللازم أن يلاحظ الإنسان الكلام فلا يعرض عنه بمجرد خروجه من غير الناصح وربما من كان كثير النصح غش بالنصيحة فلا يعتمد الإنسان على كلام الناصح دون أن يتدبر أو يفكر فيه.

(وَإِيَّاكَ وَالاِتِّكَالَ عَلَى المُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوكَى) المنى: الأماني والآمال بدون عمل مجد فيما تريد، والنوكى: الموتى أو الحمقى، فإن هذه الأمنيات بضائع الموتى فإنَّ من يتمنى لا يصل إلى مناه حتى يموت فكأنَّ أمنيته بضاعة موته وهذا تحريض على العمل دون انتظار الصدف.